14 إلين جلاسجو

(إن كل ما عملته في رواياتي أنني اشتغلت بتقليب التربة الخصبة التي ارتوت بغرور الإنسان).

الأديبة الأمريكية، التي اشتهرت برواياتها التي تستمد مادتها من مجتمع الجنوب الأمريكي.

كتبت أروع الروايات الأمريكية مثل: فرجينيا، المهرجون الرومانسيون، شريان من حديد.

يقول عنها الناقد (ألفريد كازان): كشفت سلبية الجنوب، ورفضت مثله، ونقدته بأسلوب ساخر، ممّا يدل على نظرتها الموضوعية.

لم تحصل على شهرة شعبية عريضة ذلك لأنّها لم تحاول كثيرًا الخروج إلى المجال الإنساني الرحب.

الميلاد وذكريات الطفولة

ولدت الروائية الأمريكية «إلين جلاسجو» Ellen Glasgow في عام 1874م بمدينة «ريتشموند» بولاية فرجينيا الأمريكية .

لم تلتحق بمدارس مُعيَّنة، بل تلقت تعليمها بالمنزل . كانت حياتها عادية وهادئة ممَّا أثَّر في مضمون رواياتها التي خلت تماماً من كل الشطحات الرومانسية، والمواقف المسرفة في العاطفة التي سادت مجتمع الجنوب الأمريكي .

إبداع «إلين جلاسجو» الروائى :

رواية : فرجينيا :

قصة امرأة من الجنوب الأمريكى، تفقد احترام زوجها وبناتها لها، فتحاول أن تمنح ابنها الوحيد كل مشاعرها :

صدرت رواية «فرجينيا» عام 1913م، تدور أحداث الرواية حول حياة امرأة من الجنوب الأمريكى فى الفترة من 1884م وحتى عام 1912م . كان زواجها فاشلاً، حيث إنَّها لم تستطع أن تكيِّف نفسها مع البيئة الجديدة ممَّا أظهرها فى كثير من الأحيان بمظهر غير لائق أفقدها احترام زوجها وبناتها. ولكى تعوض خيبة الأمل المحيطة بها من كل جانب صبَّت حبها وحنانها على ابنها الوحيد الذى بادلها نفس المشاعر .

رواية : الأرض الجرداء :

حينما تفشل البطلة فى الحبّ، تصرف همَّها لتحوِّل الأرض الجرداء إلى واحةٍ خضراء!

صدرت الرواية فى عام 1925 م، والرواية تتميَّز بالأحداث الطبيعية التلقائية والشخصيات ذات الأبعاد المُتعدِّدة، والخطوط الفكرية الخصبة . فقد أصيبت البطلة «دورنيدا أوكلى» بخيبة الأمل فى الحبّ، ولكى تعوض هذا الإحباط والفشل فإنَّها تضع كل همها ونشاطها فى العناية بالفدادين الجرداء التى يمتلكها والدها، والتى ترمز إلى حياتها الجافة اليائسة، وبالفعل تنجح فى تحويل الأرض الجرداء إلى بقعة أو واحة خصبة خضراء . وهى تثبت للجميع أنَّه إذا صح العزم وضح السبيل، وإن الثروة فى انتظار كل كادح مجتهد . لكن المجتمع الضيق الذى تعيش فيه لا يسمح لها بالنجاح والتفوق على كل المستويات، فهى تفشل فى علاقاتها مع الرجال، فنراها تعشق واحداً بينما توشك على الزواج من آخر ، ثم نراها ترفض طبيباً من نيويورك، وفى النهاية تتزوج

من الرجل الذى رفضها قبل ذلك، ثم تقوم على رعاية الرجل الذى أحبها فعلاً عندما تصبح سكيرة مفلسة.

وهذه المأسة لا تحدث إلاَّ فى الجنوب الأمريكى الذى يُحيط الفرد بالإحباط من كل جانب لدرجة أن يتحوَّل النجاح إلى أسطورة كاذبة !!

رواية : المهرجون الرومانسيون :

قاض كهل يتزوج من فتاة صغيرة السن، الرواية نُسجت فى قالب فنى رقيق لا يخلو من بعض الرثاء !!

صدرت الرواية فى عام 1926م . وفى هذه الرواية تتجلى مقدرة «إلين جلاسجو» على كتابة كوميديا السلوك الزاخرة بالسخرية، فالرواية تحكى قصة زواج القاضى الكهل «هانويل» من «أنابل أبتشرش» التى لم تتعد الثمانية عشر ربيعاً : وهذه الرواية ربما تحوَّلت إلى كوميديا رخيصة بين يدىّ كاتب أقل موهبة من المؤلِّفة التى بلورت المضمون فى نسيج فنى رقيق من العاطفة التى لا تخلو من بعض الرثاء . فمن الممكن أن تتميز تصرُّفات القاضى الكهل «هانويل» بالحماقة والتفاهة، ولكنها تمتزج فى الرواية بالوقار والسلوك المتزن، ممَّا يجعل القارئ يتحمَّس له فى بعض الأحيان، بل يتعاطف معه فى الوقت الذى يضحك فيه من تفاهاته وحماقاته، إنَّها حبكة عبقرية بلا شك!!

رواية : الحياة الظليلة :

فى الرواية ترفض الكاتبة النظرة التقليدية للجنوبيين.

صدرت الرواية فى عام 1932م . فى الرواية ترفض «إلين جلاسجو» النظرة التقليدية التى كانت تدمغ الجنوبيين كلَّهم بصفات وسلبيات واحدة كما لو كانوا خرجوا من قالب واحد ، تقول إحدى شخصيات الرواية : إنَّه هُراء أن نتكلَّم عن أهل الجنوب كما لو كانوا جنساً خاصاً مستقلاً بذاته، يطلب نفس المطالب، ويُفكِّر بنفس الأسلوب .

رواية : شريان من حديد :

صدرت الرواية فى عام 1935م . فى هذه الرواية تصور المؤلِّفة المرأة الأمريكية

وقد أصبحت ذات إرادة صلبة وعزيمة حديدية فى مواجهة كل الأهوال والصعاب فى جبال فرجينيا حيث استقرت لأول مرَّة، ثم فى مدن فرجينيا بعد أن قامت المدن وانتشر العمران . يعتبر النُقَّاد هذه الرواية من أحسن روايات «إلين جلاسجو» لأنَّها ركزت على العنصر الإنسانى المأسوى فى الشخصيات أكثر من تركيزها على الجانب الاجتماعى المؤقت للمواقف ساعدها على ذلك اختيارها فترة السنوات التى سبقت وواكبت فترة الانهيار الاقتصادى الشهير الذى بدأ مع مطلع الثلاثينيات من القرن المنصرم .

لم تحاول الكاتبة فى هذه الرواية تمجيد المرأة الأمريكية، بل تركتها تتفاعل مع الأحداث وتتصارع مع الأقدار حتى تُجسِّد بأسلوب درامى ما أسمته بشريان الحديد الذى يسرى فى داخلها ويمنحها ذلك الصمود الرائع لإثبات إرادتها.

خصائص أسلوب «إلين جلاسجو» الروائى :

مجتمع الجنوب الأمريكى يعيش فى الأوهام والأحلام التى لن تتحقق، ويسرف فى التعبير العلنى والصريح عن العواطف المأسوية والمشاعر الذاتية، ولذا فإن «إلين جلاسجو» رفضت كل هذه السمات واعتبرتها نوعاً من عدم النضج، وضح هذا الاتجاه فى جميع رواياتها مثل : «صوت الناس» (1900م) «عجلة الحياة» ((1906م)، «الحياة وجابرييللا» (1916م)، «هذه هى حياتنا» (1941م) بالإضافة إلى رواياتها التى تناولناها بالتحليل فيما سبق . وأيضاً وضح هذا فى قصصها القصيرة مثل مجموعة «الظل الثالث» (1923م).

ومن أهم إنجازاتها فى عالم الرواية أنَّها بلورت الصراع بين الأجيال كما خبرته فى الجنوب، ففى رواياتها الأولى تصارع الأجيال الناشئة من أجل التحرُّر من القيم والمثل الأثيرة عند جيل الآباء . وعندما جاءت الحرب العالمية الأولى ضاعفت النضج الفكرى لدى «إلين جلاسجو» بحيث بدت الشخصيات والمواقف فى الروايات التالية أكثر عُمقاً وأخصب فكراً .

أمَّا النغمة المأساوية التى تبرز فى رواياتها فهى ترجع إلى أنَّها ولدت فى فترة إعادة التعمير والبناء التى أعقبت هزيمة الجنوب فى الحرب الأهلية الأمريكية . وهى فترة

كانت بمثابة اكتشاف الذات لمعظم الجنوبيين، ومكنتها من أن ترى بعين خاصة الأسباب والعوامل السيكولوجية التى أدت إلى كل هذه المآسى التى غرق فيها الجنوب الأمريكى .

ولم تكن المأساة هى العنصر الوحيد المُشكِّل لأعمال «إلين جلاسجو» بل اتخذت من روح الدُعابة والتهكُّم ضوءاً يكشف الجوانب الأخرى من النفس الإنسانية وينأى بها عن الإسراف الفج فى العاطفة.

يقول الناقد «هـ.س كانبى» : «إنَّها كانت من أعظم الروائيين الأمريكيين الذين قضوا على الرومانسية المريضة التى سيطرت على أهالى الجنوب، إذ حرصت على أن تُقدِّم لهم حياتهم بكل سلبياتها وتناقضاتها دون أية حساسيات تقليدية».

ولقد كانت شخصياتها الروائية والقصصية بمثابة أعضاء فى مجتمع مرتهن بظروف معيشية مؤقتة، أكثر من كونهم بشراً يحملون خصائص الإنسان التى لا يحدها زمان أو مكان، ولعلّ الجانب الإنسانى الشامل فى نظرتها إلى مجتمع الجنوب يتمثَّل فى رفضها اعتبار أهالى الجنوب جنساً قائماً بذاته ويختلف عن باقى الأمريكيين.

روائية عظيمة .. بلا شعبية عريضة !!

على الرغم من صدق تصويرها الفنى فإن «إلين جلاسجو» عجزت عن الحصول على شهرة شعبية عريضة، لأنَّه من الصَّعب على القارىء الذى ليس لديه فكرة عن الحياة فى الجنوب الأمريكى أن يتذوق رواياتها وقصصها القصيرة التى تقدم من الشخصيات والمواقف والمعانى والرموز ما لا يستوعبه سوى مَنْ خبر الجنوب الأمريكى سواء فى الحياة أو من خلال المطالعات فى الكتب .

الرحيل :

أوصت «إلين جلاسجو» بأن تدفن مع كلابها، وأن تُنقل رُفات هذه الكلاب إلى نعشها بعد ذلك . وألاَّ تُدفن مطلقاً على مسافة أقل من ألف كيلو متر من قبر والدها الذى كرهته طوال عُمرها !!

وقد توفيت فى عام 1945 م عن عُمُر يناهز 71 عاماً .